الثقافة الإسلامية

أ.د/ محمد إبراهيم الجيوشي

عميد كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة/جامعة الأزهر

ثقافة الأمم من الأمم هي التي توجه المسار الفكري لأفرادها، وتشكل منهج حياتها وترسم الطريق الذي تسلكه إزاء القضايا التي تعرض لها. وتضفي عليها مسلكا خاصا في الأخلاق والسلوك والنظرة إلى الكون والحياة.

وإذا كانت منابع الثقافة في أمة من الأمم واحدة كانت موحدة الفكر والنظرة والشعور والطريق والهدف. وأما إذا تعددت مصادر الثقافة في أمة من الأمم. فإن اتجاهات شتى تتوزع تفكيرها وتفرق طريقها. فتتصادم أهدافها، وتتعارض مسالكها وتفقد وحدة الطريق والمنهج والهدف. وتذوب شخصيتها وينعدم تأثيرها فيما حولها ومن حولها.

ولقد كانت أمتنا الإسلامية في الماضي موحدة الهدف والطريق والمشاعر. وكان رد الفعل فيها واحدا إزاء أي قضية من القضايا. لأنها كانت تصدر عن منهج فكري واحد ومنبع ثقافي لا يختلف سواء في الشرق أو في الغرب. فكانت المنابع التي تشكل عقول الناس في مكة والمدينة تسير في نفس الاتجاه الذي تقوم عليه الدراسة والتكوين الثقافي في الأزهر بالقاهرة والقيروان بالمغرب. وقرطبة بالأندلس. ومساجد بغداد. والمسجد الأموي في دمشق وفي بلاد الفرس والترك وما وراء ذلك من بلاد المسلمين في الهند وإندونيسيا وماليزيا وسواها من بلاد العالم الإسلامي مما أسهم في وجود وحدة فكرية. وثقافية شملت كل أرجاء العالم الإسلامي فتماسكت وحداته. وتحقق في العالم الإسلامي آنذاك قول النبي صلى الله عليه وسلم: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر".

فلما تغير الحال، وتعددت مصادر الثقافة في العالم الإسلامي. وفتحت الأبواب أمام الرياح القادمة من الغرب على مختلف اتجاهاتها من أمريكية إلى إنجليزية إلى روسية إلى غير ذلك تفككت الرابطة وتعددت المناهج واختلفت معالم الشخصية من بلد إلى بلد. وتعددت الأهداف وتشعبت الطرق. وصار كل واد غير الوادي الذي سار فيه أخوه. ودب التنازع وحل محل الوفاق. فضعفت الشوكة. وتمكن الضعف من جسد الأمة. وأخذ الخلاف ينخر في عقول أبنائها. وبلون نظرهم إلى الحياة كما ينخر السوس في الخشب.

أما ما ألقيت بنظرك إلى العالم الإسلامي اليوم تبحث عن الشخصية الإسلامية التي تتجسد فيها شخصية الأمة الإسلامية الموحدة أعياك ذلك. لأنك ستجد هنا من يعتز ويشيد بأمريكا ويتحدث عن علمائها وأدبائها ومنهج الحياة فيها. وستجد هنالك من يتغنى بأوربا وثقافتها وباحثيها وشعرائها إنجليزية كانت أو فرنسية أو ألمانية وكذلك

الحال بالنسبة لروسيا ونظام حياتها حتى مناهج التعليم في بلادنا تجدها تعرف عن تاريخ الإسلام وتتحدث عن فلاسفة الغرب وتدرس حياتهم وفكرهم ولا تقدم شيئا عن المفكرين المسلمين وقل مثل ذلك في العلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية.

فترى هذه المناهج تحتفي برجالات الغرب من أمثال بيكون وديكارت ودوركايم وسواهم ولا تذكر شيئا عن الشافعي وأبي حنيفة والغزالي وابن خلدون وابن الهيثم وسواهم.

وإذا ما قرأت صحيفة من الصحف التي تصدر في العالم الإسلامي وجدت من تتصدى للتوجيه الثقافي فيها يتحدث عن موليير وبودلير وشكسبير ودانتي وهمنجواي ولا تذكر الجاحظ ولا البحتري ولاحسان ولا المعري ولا ابن رشد حتى أصبح قارئ الصحف في بلادنا يظن أن أمة لا تراث لها ولا تاريخ ولا أدب ولا مشاركة في ركب الحضارة الإنسانية لأن الصحف لا تحدثه إلا عن شعراء من الغرب ومفكرين من الغرب وعلماء من الغرب كأنه تاريخنا قد عقم فلم يقدم للدنيا عمالقة في كل ألوان المعرفة والثقافة.

وقل مثل ذلك فيما تقدمه وسائل الإعلام المستحدثة من إذاعة مسموعة ومرئية. وليس معنى ذلك أننا ندعو إلى قفل الأبواب وإغماض الأعين عما وصل إليه الغرب من تقدم واكتشافات ولكننا ندعو إلى أخذ النافع منه عندهم والتعريف بما يموج به تاريخنا من علماء وباحثين وأدباء وشعراء قادوا ركب الحياة يوم أن كان الإسلام هو الموجه وهو الباني لما تحتاجه حياة الفرد والأمة على هذه الأرض في الحكم والتشريع والبحث والاكتشاف والاختراع. وآداب السلوك وقيم الأخلاق. وتربية الضمير الديني الذي يكون بمثابة الحارس والمنبه للإنسان حتى لا يجمح به الفكر. ولا ينسى في غمرة البحث أن له رسالة يؤديها في جلب الخير للناس وتحقيق السعادة لبني البشر. وإرساء قواعد الإخاء الإنساني والمساواة بين الشعوب بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم وألسنتهم لأن الله لا ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم. والله يقول " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم "[1]

وقد يغتر الإنسان بما حصل عليه من علم ومعارف. وربما دفعه ذلك إلى الغفلة عما يحتويه الكون العجيب من حقائق تفوق الخيال. ولو علم ذلك لأدرك أن علمه قطرة في بحر والله سبحانه يقول "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"[2] ومن الملاحظ أن الإنسان كلما اتسعت دائرة معارفه كلما أدرك أنه في حاجة إلى المزيد. وأحس بضآلة ما وصل إليه. وقد عبر عن هذه الحقيقة كثير من العلماء والمفكرين حتى أثر عن الإمام الغزالي قوله: العلم ثلاثة أشياء من تجاوز الشبر الأول تكبر. ومن تجاوز الشبر الثاني تواضع. ومن تجاوز الشبر الثالث علم أنه لم يعلم شيئا ".

ولو بحث عن الانحرافات الفكرية التي تظهر على الساحة كثير من الناس لوجدت سببها يرجع إلى نقص العلم. ذلك لأن العلم الناقص خطر على صاحبه. وعامل من عوامل عدم الاستقرار فيمن يحيطون به. ولهذا أثرت كلمة

عن بعض كبار فلاسفة الغرب ترجمتها: أن بدايات الفلسفة تؤدي إلى الإلحاد. ولكن المعرفة الكاملة بالفلسفة طريق إلى الإيمان ..ولهذا كان من منهج الإسلام دائما أن يربط المعرفة بالله. ويجعل لها نسبا إلى العقيدة والإيمان حتى يكبح الإيمان جماح العلم، ولا يدمر ولا يؤذي. ولو استعرضنا تاريخ الفكر الإنساني. ووقفنا مع أطوار الحضارات العالمية لاسترعى انتباهنا من الحضارة نموذجان متميزان في تاريخ الإنسان. النموذج الأول يتمثل في الحضارة الإسلامية التي قامت في رحاب الدين وعلى هدى من توجيهه. فقدمت للبشرية الهداية والنفع والاستقرار. لأنها كانت في رحاب الفكر مهتدية بنور الله. فإذا جمح بها العقل وجد في الضمير الديني ما يرد ذلك الجموح. ولذلك كانت حضارة بناء ورخاء وسلام. لأنها قامت في أحضان الدين. فلما انفلتت الحضارة من حراسة الدين. وانطلق العقل يبحث ويكشف عن حراسة الضمير الديني واستباحت أن تخرب وتدمر وتقتل. وتجر المآسي على بني البشر. وهذا هو الذي تمثله الحضارة المعاصرة. فعلى الرغم من اكتشافاتها الهائلة. وتقدمها المادي الملموس في كل مظاهر الحياة إلا أنها تفقد العنصر الإيماني الذي يوجه طاقتها الجبارة نحو البناء والتشييد والرخاء والأمن وسعادة الإنسان. ولو قيأ لها الروح المتمدين لقدمت لبني الإنسان السعادة التي يحلم بها وتتطلع إليها أجيال البشر جيل. ولعل الله سبحانه يرسل شعاعا من الإيمان إلى تلك العقول الجبارة التي تغزو الفضاء وترتاد الكواكب. وتكشف أسرار الكون. فتسخر كل ما تعرف لخدمة وسعادته بدل أن تتسابق في وسائل الإهلاك والتدمير ذلك التسابق الرهيب الذي تخشى البشرية من ورائه أسوأ العواقب.

ولاشك أن العالم المؤمن سيؤديه عمله إلى إدراك صنع الله وقدرته. وبعمق في وجدانه معنى الإيمان بالله. والإحساس بعظمته كلما اكتشف جديدا. أو وقف على سر من أسراره. وحضر في الآن المناقشة المثيرة التي دارت بين عالمين من أكبر علماء الطبيعة والرياضة في مطلع القرن العشرين. أحدهما هندي مسلم والآخر إنجليزي مسيحي. وقد أورد وحيد الدين خان تلك المناقشة على لسان العالم الهندي الدكتور عناية الله مشرقي قال: كان ذلك اليوم أحد من أيام سنة 1909م وكانت السماء تمطر بغزارة. وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما. فبدا لي أرى الفلكي المشهور السير جيمس جينز الأستاذ بجامعة كمبودج ذاهبا إلى الكنيسة والإنجيل والمظلة تحت إبطه. فدنوت منه وسلمت عليه. فلم يرد. فسلمت عليه مرة أخرى. فسألني: ماذا تريد مني؟

فقلت له: آمرين يا سيدي. الأول هو أن مظلتك تحت إبطك رغم شدة المطر. فابسم السير جيمس. وفتح مظلته على الفور.

فقلت له: أما الأمر الآخر فهو ما الذي يدفع رجلا ذائع الصيت في العالم مثلك أن يتوجه إلى الكنيسة .

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال: عليك اليوم أن تتناول شاي المساء عندي.

وعندما وصلت إلى داره في المساء خرجت إلى ليدي جيمس. في تمام الساعة الرابعة وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني. وعندما دخلت عليه في غرفته وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي. وكان السير جيمس منهمكا في أفكاره. وعندما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك؟ ودون أن ينتظر رداي بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها المدهش. وأبعادها وفواصلها التي لانهاية لها. وطرقها ومداراتها وجاذبيتها. وطوفان أنوارها المذهلة حتى إنني شعرت بقلبي يهتز لهيبة الله وجلاله.

وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائما. والدموع من عينيه ويداه ترتعدان من خشية الله. وتوقف فجأة ثم قال: يا عناية الله عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي وعندما أركع أمام الله وأقول له : إنك لعظيم أجد أن كل جزء في كياني يؤيدني في هذا الدعاء. وأشعر بسكون وسعادة عظيمين. وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة أفهمت يا عناية الله خان لماذا أذهب إلى الكنيسة.

ويضيف عناية الله: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانا في عقلي. وقلت له يا سيدي لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التي رويتموها. وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس. فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم. فهز رأسه قائلا: بكل سرور. فقرأت عليه الآية التالية " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ".

فصرخ السير جيمس قائلا: ماذا قلت؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء مدهش وغريب جدا. إن الأمر الذي كشف عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين عاما. من أنبأ محمدا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك. فاكتب شهادة مني أن ..القرآن كتاب موحى من عند الله. لقد كان محمد أميا. ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه. ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر. مدهش وغريب وعجيب جدا.

ولاشك أن العلم بالله والوقوف على جوانب عظمة مخلوقاته يدل على عظم الخالق سبحانه ويهدي إلى الإيمان به واليقين وقدرته . ولعلنا نفهم على ضوء هذا الفهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " ان يوم لا أزداد فيه علما لا بارك الله لي في طلوع شمس ذلك اليوم "..

ولسنا في حاجة إلى أن نشير إلى ما تهيأ للإنسان في العصر الحالي من وسائل مكنته من أن يكشف كل يوم جديدا من القوانين في الأسرار التي تتحكم في قوى الطبيعة من حوله. وقد استطاع بواسطة هذه الاكتشافات الجديدة أن يوسع من دائرة معارفه وأن تزداد قوته بسبب ما وقف عليه من أسرار ومكنته في تسخير كثير من القوى الكونية الكامنة لخدمه أهدافه وأغراضه. وليس هناك باعث ذاتي على الخوف والقلق من جراء وقوف الإنسان على هذه الأسرار وتعامله معها. ولكن الأمر المثير للقلق والخوف حقا: هو هل أن ما لدى الإنسان المعاصر

من قيم أخلاقية إيمانية كافية أن توجهه إلى تسخير معارفه وقوته التي قيأت له في جلب الأمن والطمأنينة إلى قلوب البشر واستعمال هذه المعارف فيما يحقق لبني الإنسان الأمن والسعادة أم أنه سيستعمل هذه القوى في إثارة الفزع والرعب من المصير المجهول الذي لا تعرف البشرية مفاجآته من أجل استعمال هذه المعارف وتلك القوى في إهلاك الحرث والنسل والدمار الذي نشاهد آثاره من وقت لآخر هنا وهناك؟.

إن ما نلمسه من حصاد الآلام والشقاء الذي عانت منه البشرية في خلال هذا القرن يجعلنا ننظر نظرة متشائمة. يغلفها الرعب من المصير المجهول الذي يترصد الإنسان في هذا الكون في غده الذي لا يدري ماذا سيحمل له في طياته من مفاجآت.

حقا أن الإنسان قد انفتحت أمامه الآفاق في الأرض وفي السماء. وعرف الطريق إلى الكواكب ولاشك أن ذلك اكتشاف مثير وعجيب. ولكن ذلك كله لم يستطع الإنسان المعاصر قدرا من الأمن والأمان يجعله يطمئن إلى ما يأتي به الغد. ورقب المستقبل بعين تطلع إلى غد مأمول. وقلب مطمئن إلى ما يسفر عنه صباح هذا الغد المجهول.

هذه حقيقة يعيش تحت ضغوطها عالمنا المعاصر ويشتد الإحساس بمخاوفها أكثر وأكثر لدى هؤلاء الذين عاشوا في ظل هذه الحياة المادية القاحلة. وبتعبير آخر يمكننا أن نقول : أنه على الرغم مما وصلت إليه البشرية من تقدم مادي مذهل واكتشافات هائلة فاقت وقائعها تهويمات الخيال فإنها في تحقيق السعادة التي ترنو إليها وتسود أن تحس بردها يسري بين جوانحها ويداعب أحلامها.

لاشك أن هذه الاكتشافات والاختراعات تؤثر على اتجاهات الحياة في الشرق والغرب ويقرأ عنها الشباب في الجامعات، وربما سيتوه بهم ما وصلت إليه. وظنوها الطريق الموصل إلى القدم الحضاري ويندفعون في سبيلها المحفوفة بالمخاطر، فيزيدون البشرية آلاما على آلامها. وأحزانا تضاف إلى أحزانها.ذلك أن سرعة وسائل الاتصال جعلت العالم من أقصاه إلى أقصاه، كأنه قرية واحدة. لا يكاد يمضي قصير من الزمن حتى ينتشر في كل أرجائه ما وقع في ركن من أركانه.

هذه الأسرار التي وقف الإنسان عليها في عالمنا المعاصر أصابته بالغرور، وجعلته يظن أنه قادر على أن يصنع عالمه على عينة: فماجت الأرض بالمذاهب والتيارات والأفكار وأخذت تصب في كل اتجاه وافدة من الشرق أو من الغرب يتلقاها الشباب هنا وهناك هذا يجذبه إلى اليمين. وذاك يدفعه إلى اليسار. وهذا يحمل في طياته تقويض صروح الأخلاق والقيم التي عاشت عليها البشرية منذ آلاف السنين. وذاك يجعل المادة إلهه المعبود ويطمس ما انطوت عليه القلوب من نور الإيمان.

وكل هذه المذاهب والأفكار تصب في عقول الشباب المسلم مصاحبة لما وقف عليه الإنسان من أسرار الكون التي اهتدى بها إلى المخترعات والاكتشافات التي تصيب العقل البشري بالذهول فيربط بين هذا وذاك . وقد

يترسب في أعماقه أن الوقوف على أسرار الكون والوصول إلى الجديد من المخترعات والمكتشفات مرتبط بما وفد إليه من أفكار ومذاهب تدعو إلى الإلحاد وقدر القيم والأخلاق فيسلك سبيلها المحفوف بالمخاطر ظانا أنها الطريق إلى التقدم العلمي والسبق الحضاري ، فإذا ما وفد عليه كل ذلك، وليس لديه من القيم الروحية الأصلية والمعرفة الواعية بتراثه. وما حققه أسلافه للبشرية من وسائل العلم والمعرفة التي قادت خطى الإنسان المعاصر إلى هذا التقدم العلمي الرهيب. نقول إذا وفدت عليه هذه الوافدات، وهو خلو من القيم والمعارف التي تحصنه كان سهلا عليه أن ينساق في تيارها ذاهلا عما يترتب على ذلك من أخطار تهدد مستقبل البشرية بأسرها.

من أجل ذلك كانت الحاجة ماسة إلى أن يتزود شبابنا في جامعتنا بقيم روحية مؤثرة نابعة من عقائدنا وتراثنا وهو تراث لم تعرف البشرية له مثيلا في خصبه ونفعه وعطائه توجه حياتهم، وتأخذ بأيديهم نحو النجاة وتدفع بهم إلى شاطئ الأمان.

وهنا يأتي دور الإعداد السليم، والتوجه المحكم، الذي يأخذ في اعتباره القوى المختلفة التي توجه النشاط الإنساني في شتى اتجاهات جسمية والعقلية والروحية ويقدم لها من التوجيه والنمو ما يجعلها تمضي في طريقها تبني الكيان الإنساني متوازية متوازنة. فلا يطغى جانب منها على الجانب الآخر. بل يعاون بعضلها بعضا. فالكيان البشري يحتاج إلى تعهد القوى الجسمانية بالعناية والرعاية والتدريب والمران "علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل" "وإن لبدنك عليك حقا ".

ويحتاج كذلك إلى تنمية القوى الفكرية واستعمال العقل فيما ينفع الإنسان، ويقوي جانب الملاحظة فيه وفي ذلك جاء التوجيه القرآني: "وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون. وفي السماء رزقكم وما توعدون "[3] . " أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي. وأنبتنا به جنات وحب الحصيد. والنخل باسقات لها طلع نضيد للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج".[4]

" ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا، وجعلنا الليل لباسا، وجعلنا النهار معاشا. وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ".[5]

وفي حاجة ماسة كذلك إلى ترقية القوى الروحية لتكون بمثابة الحارس والرقيب على العقل حينما يكتشف وحينما يفكر. فلا يجمح ولا ينحرف. وبذلك تنطلق القوى الفكرية في الإنسان محصنة بنور الإيمان، وطمأنينة اليقين. فتجعل سعادة البشرية هدفها وتحقيق الرخاء لها غايتها. والعمل من أجل أمنها وطمأنينتها وسلة إلى رضى الله وطريقا إلى معرفته فخير الناس أنفعهم للناس، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه. وما استحق الحياة

من عاش لنفسه فقط، والله سبحانه وتعالى يقول " من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون "[6]. " ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما".[7]

وعلى ضوء هذا التوجيه تمضي الحياة بالمجتمعات آمنة رخية سعيدة، فلا تفكر إلا فيما يحقق الخير للجميع، ولا تعمل إلا ما يجلب الخير، ولا تقول إلا ما يوجه إلى الخير.

ولكن كيف يتحقق ذلك ؟، وما هو المنهج الذي نقدمه لشبابنا في الجامعات حتى نفتح أمامهم الطريق إلى العمل الجاد والبحث المفيد والاكتشاف الهادف لخير الإنسان وأمنه.

يتحقق ذلك بتوفير المعرفة الصحيحة، وذلك لأن العلم بحر لا ساحل له، والله سبحانه يقول :" وما أوتيتم من العلم إلا قليلا "[8]، ولهذا كان حرص الإسلام على الاستزادة من العلم يمثل حجر الزاوية في حركة الحياة، ويبدو هذا وضحا في آيات القرآن الكريم من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم .ومن الأمثلة على ذلك في القرآن الكريم: "وقل ربي زدني علما "[9]" يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" [10] " وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم " [11] " أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى" [12] " قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون".[13]

ومن الحديث " أطلب العلم من المهد إلى اللحد " كن عالما أو متعلما ولاتكن الثالثة فتهلك" "إن يوما لا أزداد فيه علما لا يورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم" "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له ".

وعلى ضوء هذا التوجيه الواضح والسنة علينا أن نقدم لشبابنا الحقائق العلمية التي تجد، وأن نربط هذه الحقائق بما يدعو إليه ديننا من تحصيل العلم والإفادة منه، ومن دلالة هذه الحقائق العلمية على العناية الإلهية، وعلى القدرة الباهرة للخالق جل وعلا الذي أحسن كلأ شيء خلقه، والذي قدر فهدى، وأن ما وصل إليه الإنسان من اكتشافات لم يوجدها من عدم، ولم يكن له فيها من جهد سوى أنه اهتدى إلى معرفة الطريق لاستغلال الطاقات التي أودعها الله في الكون منذ الأزل ولنضرب لذلك مثلا مما عرفته الإنسانية في السنوات الأخيرة من محاولة البحث عن وسيلة للتغلب على الجفاف والقحط الذي يغلب على المناطق الصحراوية في العالم، وأسفر البحث عن الوصول إلى تحلية مياه البحار والمحيطات لتمد الصحراء بما تحتاج إليه من ماء يجعل الحياة تدب فيها وتغطي الخضرة ربوعها بعد أن ظلت قاحلة آلاف السنين، وقد أصبحت محطات تحلية مياه البحار تمثل أحدث ما وصل إليه الإنسان من وسائل التغلب على المصاعب التي تواجهه لكي يقهر الصحراء ويعيش فيها آمنا مطمئنا.

ولاشك أن هذا الاكتشاف يثير التقدير والإعجاب ويدل على الجهد المضني الذي بذله الإنسان ليصل إلى هذه النتيجة التي تهيئ له حياة أفضل ومستقبلا أكثر أمنا. وتعينه على تحقيق الرخاء والنماء للمجتمع الإنساني عن طريق تسخير طاقات الكون التي أودعها الله فيه. وحث الإنسان على محاولة اكتشافها واستغلالها والانتفاع بها لخيره وخير ما يشاركه على هذه الأرض من حيوان وزرع ونبات.

إن هذا الاكتشاف العلمي الباهر حينما يصل إليه عقل غير مؤمن لا يستطيع أن يصل بواسطته إلى القدرة العليا التي هيأت هذه الطاقات في الأرض وفي السماء. ولكن العقل المؤمن يستطيع أن يدرك من خلال هذا التقدم العلمي آثار القدرة الإلهية العليا فيزداد إيمانه. ويعمق يقينه. ويهتف مع المؤمنين قائلا: " ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك" [14] حينما نقدم قضية مثل هذه لشبابنا في جامعاتنا علينا أن نعقب على ذلك بأن الله سبحانه قد زود الكون بطاقات متعددة تضمن لحركة الحياة الاستقرار والنماء. ويكون ذلك عن طريق توجيه الأنظار إلى ما جاء في القرآن الكريم حينما يذكر الله الإنسان بالنعم التي أحاطه بها من مثل قوله تعالى" هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن ذلك لآيات لقوم يعقلون. وماذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها. وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله. ولعلكم تشكرون وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ". [15]

فهذه الآيات الكريمات على الرغم من أنها سيقت للدلالة على قدرة الله وآثاره في الأرض وفي السماء إلا أنها مع ذلك تقم فكرة متكاملة عن دورة الحياة والقوانين التي أحكم الله بها صنعه. كما قال سبحانه " إنا كل شيء خلقناه بقدر"[16] وحينما نعقب بها على ما اهتدى إليه الإنسان من وسائل توصل بها إلى تحلية مياه البحار نقول: إن ذلك مأخوذ مما أودع الله في كونه. فحينما أشار إلى تسخير الشمس إنزال المطر وإنبات الزرع إلى جانب النعم الأخرى التي أشار إليها يستطيع الدارس لقوانين الكون أن يكشف عن تسلط حرارة الشمس على المحيطات والبحار فيتبخر ماؤها بفعل الحرارة، ويرتفع إلى طبقات الجو العليا حيث يكون سحابا تسيره الرياح بإذن الله إلى أن ينزل مطرا حينما يصادف برودة في مكان ما فتجري منه الجداول والأنهار. ويسقي الزرع والثمار. ويحيا به الإنسان والحيوان والنبات وكل ذلك لأن الله سلط الشمس على المحيطات فارتفعت مياهها بخارا. ثم انعقدت سحابا ثم نزلت مطرا. وما وصل إليه جهد الإنسان وبحثه وآلاته الضخمة ما هو إلا محاكاة لجانب من تقدير الله في خلق الشمس والبحر وتسخيرهما لخدمة الإنسان. وتقدم حركة الحياة على هذه الأرض.

حينما نقدم لشبابنا في جامعاتنا الاكتشافات العلمية مشفوعة بآثار قدر الله في هذا الكون الفسيح نكون بذلك قد ربطنا الأسباب بمسبباتها. وعمقنا جذور الإيمان في قلوب الشباب فتزداد معرفتهم بالله عن طريق الوقوف على آثاره. وتزداد خشيتهم له ومراقبتهم إياه فيسهمون في صنع الخير لإخوانهم من بني الإنسان وصدق الله العظيم" إنما يخشى الله من عباده العلماء " وندفعهم إلى البحث والتقصي واكتشاف الأسس التي يبنون عليها بحوثهم في كتابهم الكريم. فيقوى إيمانهم وتتأكد شخصيتهم. ويتمتعون بقدر كاف من الحصانة الفكرية والروحية فلا تنال منهم أفكار وافدة. ولا تخدعهم مظاهر تدعى التحرر والانطلاق. وإنما يتمكنون بفضل ما وقفوا عليه من رد جماح الجامح وإعادة المخطئ إلى الصواب وقيادة الحركة العلمية في العالم على أساس كل الإيمان الثابت. والعقل المحصن بالضمير الديني. هكذا يتحقق الاستعداد الخير لدى شبابنا فيطمئن بهم المسير وهم يخوضون معركة الحياة.

وقد لوحظ على مثقفينا بوجه عام ضعف مستواهم اللغوي. وتعثرهم حينما يتحدثون بلغتهم العربية حتى أن الأغلبية الساحقة منهم تجد من اليسير عليها أن تعبر عن نفسها بلغة أجنبية. لأن أخطاءهم فيها غير ملحوظة أما أخطاؤهم في لغتهم العربية أخطاء فاحشة تصيب المستمع بالضيق. وقد أدى ضعف المستوى اللغوي لدى باحثينا في العلوم التجريبية والإنسانية أن اتسعت الفجوة بينهم وبين تراث آبائهم. لأن عجزهم اللغوي حال بينهم وبين الاضطلاع على هذا التراث وما فيه من كنوز ومحاولات رائدة في ميادين العلوم المختلفة من طب وصيدلة وجبر وكيمياء وغير ذلك. ولو تيسر لهم قدر كاف من الاتفاق اللغوي لعرفوا أن أسلافهم قادوا مسيرة الحضارة الإنسانية عدة قرون. وخلفوا من التراث العلمي والفكري كما هائلا يمتاز بالأصالة والابتكار وكان هو حجر الأساس الذي قامت عليه النهضة الحديثة في أوروبا.

لو كان لدى شبابنا زاد وافر من المعارف اللغوية لاستطاعوا أن يقفوا على ابتكارات العلماء العرب والمسلمين في شتى ميادين العلم، ولأدركوا أن العواصم الإسلامية في العراق والشام ومصر والأندلس وبلاد ما وراء النهر كانت مراكز إشعاع عالمي يفد إليها طلاب المعرفة من أنحاء الدنيا في الشرق والغرب على سواء. وأن البعوث كانت تفد على الأمصار الإسلامية من بلاد أوروبا تتعلم على أيدي شيوخها وتتلقى العلوم والمعارف في ساحات مساجدها ومدارسها على أيدي العلماء المسلمين في التشريع والفلسفة والعلوم التجريبية الأخرى. وأن ملوك أوروبا كانوا يبعثون بأبنائهم وبناتهم إلى بلاط الخلفاء الأمويين في الأندلس يتعلمون هناك كيف يتعاملون مع الآخرين في أسلوب حضاري متميز.

لقد أدى الضعف اللغوي لدى شبابنا إلى أن يجهلوا الدور الرائد الذي أداه البيرواد من علماء العرب والمسلمين الأفذاذ من أمثال الكندي وابن الهيثم وابن رشد والرازي وابن سينا والزهراوي وابن البيطار وسواهم.

ومن أجل ذلك كان لزاما علينا أن نقدم لهم منهجا يسد النقص الواضح في المعرفة بتراثه، وأخذهم أنفسـ بالقيم المنبثقة من تعاليم ديننا. ويجبر الضعف البادي في معرفتهم بلغتهم. ويمكن تقديم خطوط عريضة لمنهج مقـ على النحو التالي:

أولا : القيم الروحية:

1- دور الإسلام في النهوض بالإنسان:

أ- في العقيدة . ب- في السلوك .

ج-في الأخلاق . د- في التشريع .

هـ في المعاملات . و- في إرساء القيم الإنسانية مثل : الحرية

المساواة – العدل – التسامح –حرمة

العقيدة والعقل والنفس والمال.

2 -القرآن وتقدم الفكر الإنساني

3- الرسول يضرب المثل للإنسانية في تأصل القيم العليا .

4- السنة النبوية وبناء المجتمع الإنساني .

5- مصادر التشريع في الإسلام، وأهداف التشريع الإسلامي ومناهجه ومقارنتها بالمنهاج الأخرى.

6- خصائص الحضارة الإسلامية: منهاجها وأهدافها.

7- الفرق بينها وبن الحضارات العالمية قديما وحديثا.

8- نماذج من حياة وأعمال الباحثين والقادة والمفكرين المسلمين.

أ- الفاروق عمر بن الخطاب.

ب- عمر بن عبد العزيز.

ج- خالد بن الوليد .

د- الغزالي.

هـ ابن خلدون.

و- ابن رشد.

ز- ابن تيمية .

ح- جابر بن حيان.

ط- الإمام الشافعي.

ي- صلاح الدين الأيوبي .

9- منهج القرآن في محاورة المخالفين.

10- حرية الفكر في ظل الإسلام .

ثانيا: منهج مقترح لتنمية القدرة في اللغة العربية:

1-الجملة العربية ومكوناتها.

2- الأسلوب العربي وأنواعه خبري، وإنشائي.

3- اللغة بين الحقيقة والمجاز

4- الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي وأنواع وخصائص كل منهما .

5- وسائل اللغة العربية في التعبير والمخترعات الجديدة مثل: الاشتقاق، التعريب النحت الخ .

6- الشعر والنثر ومقومات كل منهما .

7- نماذج مختارة من الشعر والنثر تنمي القدرة على التعبير .

8- تراجم لبعض الكتاب والشعراء والخطباء وعرض نماذج في إنتاجهم يتناولها بالتحليل والدراسة .

9- حفظ نصوص من القرآن والحديث والأقوال المأثورة .

10- دراسة تحليلية لأجزاء من كتب بعض الباحثين القدامى تتفق مع تخصصات الدارسين فمثلا يقدم للدارسين:

أ- في الاجتماع فصل أو فصول من مقدمة ابن خلدون مع دراسة لمنهجه ودوره في نشأة علم الاجتماع .

ب- بالنسبة للدارسين في الصيدلة تقدم لهم بعض الفصول من مفردات ابن البيطار وطريقته في البحث.

ج- بالنسبة للدارسين في الطب تقدم لهم نماذج من كتاب القانون في الطب لابن سينا.

وهكذا في كل فرع من المعرفة يقدم لطلابه فصل أو فصول من كتاب يتفق مع تخصصاتهم ليروا كيف كان يكتب أسلافهم وكيف كانوا يفكرون وبهذه الوسيلة يسهل اضطلاعهم على التراث والبحث واكتساب الثقة التي تدفعهم إلى الجد والإنتاج.

وما عرضنا له في الصفحات السابقة يصور ملامح الثقافة التي نريدها لأمتنا في حاضرها ومستقبلها، وهدف هذه الثقافة أن تساعد على تكوين الشخصية الإسلامية المستقلة ذات الملامح المتميزة من غيرها.

وتقوم عناصرها على:

1-دراسة القرآن الكريم دراسة واعية وفهمه فهما متأنيا يعين على الانتفاع بما فيه من إشارات كونية

وإنسانية .

2- استيعاب السنة النبوية المطهرة واستخلاص القيم الإنسانية والحضارية التي تدعو إليها .

3- الوقوف على تراث المسلمين ومدى ما قدموه للعالم من معارف متنوعة في جميع الميادين العقدية والتشريعية والعلوم التطبيقية .

4- إبراز الوجه المشرق للحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي.

والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ...

---

1 -الحجرات آية 13

2 -الإسراء آية 10

3 - الذريات آيات 20، 21، 22

4 - سورة قاف الآيات من 5-10

5 - سورة النبأ (عم) الآيات من 6 -16 .

6 - سورة النحل الآية 97 .

7 -سورة طه آية 112 .

8 -الإسراء 10 .

9 - طه الآية 114 .

10 - المجادلة الآية 11.

11 - النساء الآية 113.

12 - الرعد الآية 19 .

13 -الزمر الآية 9 .

14 - آل عمران آية 19

15 - النحل الآيات 10 إلى 17 .

16 - القمر الآية 46